مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الرابع/ العـدد الأول (جوان2020)، ص 49– 63

الاغتراب الروائي في الرواية الجزائرية المعاصرة ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي أنموذجًا

Novelistic alienation in the contemporary algerian novel Dakeret aljasad of Ahlam Mostaghanemi is an example.

فائزة طالب – *Faiza Taleb* –[1]، أ.د الوالي بوجمعة *Dr Louali Boudjema* – [2]

جامعة البليدة 2 علي لونيسي1 – *Blida 2 Ali Lounici University*

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية – *Laboratory of literary and critical studies*

faizataleb09@gmail.com

جامعة البليدة 2 علي لونيسي2 – *Blida 2 Ali Lounici University*

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية – *Laboratory of literary and critical studies*

Louali_boudjema@hotmail.fr

المؤلف المرسل: فايزة طالب *Taleb Faiza* الإيميل: *faizataleb09@gmail.com*

تاريخ الاستلام:2019/04/13 تاريخ القبول:2019/05/14 تاريخ النشر:2020/06/13

ملخص:

تحاول هذه الدراسة الكشف عن ظاهرة من الظواهر التي برزت في الأدب باعتباره نتاج نشاط إنساني، وتتمثل في الاغتراب الذي لازم العديد من الأعمال الأدبية العربية وبوجه خاص الجزائرية منها، وتظهر تجلياته في صور وأشكال مختلفة، وارتأينا من خلال هذا البحث الوقوف عليها من خلال نموذج لروائية جزائرية ذات شهرة عربية، ترجمت معاناة شعب عبر نتاجها الروائي، مبرزة أهم أشكال هذه الظاهرة وما يقف خلف ذلك من دوافع تعود في مجملها إلى عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية. تتمثل في الفقر ومصادرة الحريات وسيادة قوى متسلطة، يقابلها وعي فردي حاد يعيد صياغة الواقع بصور مختلفة لدى شخصياته الروائية.

كلمات مفتاحية: أحلام مستغانمي، الرواية الجزائرية المعاصرة، ذاكرة الجسد، الاغتراب، الأدب المعاصر

Abstract:

This study attempts to uncover a phenomenon that has emerged in literature as a product of human activity. It consists of the alienation that is necessary for many Arabic literary works, especially the Algerian ones, and its manifestations are manifested in different forms and forms. A model of an Algerien novel of arab fame, translated the suffering of the people throught their novel, highlighting the most important forms of this phenomenon and the consequent motives that are due to the overall political, economic and social factors of poverty and the confiscation of freedoms and the rule of authoritarian forces, With pictures m His characters have damaged fiction.

Keywords:

Ahlam Mostaghanemi, the contemporary Algerian novel, memory of the body, alienation, contemporary literature.

Résumé:

Cette étude tente de découvrir un phénomène qui a émergé dans la littérature comme un produit de l'activité humaine. Il consiste en l'aliénation nécessaire à de nombreuses œuvres littéraires arabes, notamment algériennes, et ses manifestations se manifestent sous différentes formes et formes. Un modèle de roman algérien de renommée arabe, traduit la souffrance du peuple à travers son roman, mettant en évidence les formes les plus importantes de ce phénomène et les motifs qui en découlent en raison des facteurs politiques, économiques et sociaux généraux de la pauvreté et de la confiscation des les libertés et la domination des forces autoritaires, Avec des images m Ses personnages ont endommagé la fiction

Mots-clés:

Ahlam Mostaghanemi, le roman algérien contemporain, mémoire du corps, aliénation, littérature contemporaine

1– مقدّمة:

تعدّ ظاهرة الاغتراب ظاهرة لصيقة بالوجود الإنساني وملازمة له، فهي قديمة قدم وجوده، فالإنسان يعيش في احتكاك مع المجتمع، يعي وجود الآخرين بجواره، يشعر باستقلاليته وتميّزه وتفرّده، لكن نتيجة ظروف معينة ينفصل انفصالا حادا عن الطبيعة وعن المجتمع والدولة أو حتى نفسه وأفعاله، فيعيش في عزلة بسبب شعوره أن الآخرين لا يواكبونه فكريا، وعدم رضاه عمّا يسود المجتمع من ثقافات مشوهة وتضليل سياسي، وتضارب في الآراء والأفكار. فألقت بظلالها على حياة الإنسان فكريا ونفسيا، ليغترب جغرافيا بجسمه عبر الهجرة من مكان إلى مكان أو بالإنطواء على الذات أو رفض الأعراف الاجتماعية السائدة أو بإنكار النظام القائم بجميع إيديولوجياته، وقد تجتمع كل هذه الظلال حتى تستشرف حياة الكمال المأمولة.

لقد انعكست هذه هذه الظاهرة على الأدب بصفة عامة والرواية خاصة لما تحمله من خصوصيات، فهي ترجمة للإحساس والعواطف والأفكار وميدانا رحبا لهواجس الإنسان وتعبيرًا أصيلًا عن خلجات النفوس، ومرآة عاكسة لتجارب الروائي الحزينة والمؤلمة، ولأن الرواية كانت ولا تزال تجسيدًا أو استجابة إنسانية لرؤية العالم، فقد كانت أكثر صلة بهذه الظاهرة وأفصح في التعبير عنها، وأدق في تصويرها. فغدا الاغتراب موضوعا بارزا فيها شأنه شأن مختلف أوجه النشاط الإنساني.

لم تكن الرواية الجزائرية بمنأى عن هذه الظاهرة، نظرًا لما شهدته الجزائر من ظروف سياسية واجتماعية لابدّ لها من أن تنعكس على الأدباء، وأحلام مستغانمي كغيرها من الروائيين قدمت لنا من خلال روايتها "ذاكرة الجسد" شخصية من واقع المجتمع الجزائري بكل ما تحمله من سمات إنسانية إيجابية أو سلبية، فجاءت شخصية غنية ومغرية بالاكتشاف والتحليل.

بالنظر لأهمية الموضوع، ارتأينا أن نتخذه موضوعا لدراستنا محاولين الإجابة على مجموعة من التساؤلات:

ما مفهوم الاغتراب؟ وكيف تجلى داخل الرواية؟ وما أهم التمظهرات الاغترابية في هذه الرواية؟

2- مفهوم الاغتراب:

ظاهرة الاغتراب ليست حديثة؛ وإنما ظاهرة عرفها الإنسان منذ الأزل في مختلف المجتمعات «ولعلّ أول مظهر من مظاهر الاغتراب الذي عرفته البشرية يعود إلى تلك اللحظة المتعالية التي غربت فيها الجنة بنعيمها السرمدي عن آدم عليه السلام، ونزل الأرض مغتربا عنها وعن المعية الإلهية التي كان يحظى بها قبل عصيان أمر ربّه؛ فتلك بحق وصدق أولى مشاعر الاغتراب»[1]. فقد أرّخ البعض للاغتراب منذ هذه اللحظة التي انفصل فيها أبو البشرية عن عليائه ونزوله إلى الأرض ليعاني شقاء الحياة وألمها. بالإضافة إلى الاغتراب الرمزي الذي نستوحيه من حادثة إبليس ورفضه الانصياع لأوامر الله عز وجلّ وتغريبه «عصيان إبليس واستكباره على الأمر الإلهي ليلعن ويطرد هو الآخر من الجنة، وقد أعطي مهلة لغربته من بداية العالم إلى يوم القيامة»[2].

هكذا ظهر الاغتراب كفكرة ضربت بجذورها في أعماق الذاكرة الإنسانية في الفكر المسيحي والعصور الوسطى، وكذا الكتابات اللاهوتية ليتخذ فيما بعد صوراً جد معقدة، لأن الإنسان معقد بإنسانيته.

يبدو وبشكل جلي أن مفهوم الاغتراب مرتبط بالانفصال والابتعاد عن الأرض من جهة، وبكل ما هو موحش وحزين، ومسبب للشقاء والرزايا من جهة أخرى، فتجاوز المدلول المادي إلى ما هو أعمق وأبعد من ذلك، والذي يتجلى في المعنى الحسي المتعلق بالنفس وبالجانب الروحي، أما البعض من المؤرخين فقد التمسوا للمصطلح مصادر قديمة تعود إلى الفكر الإغريقي القديم، وتتجلى فيما يعرف بحالة الجذب "Extasis" حيث يسلم الإنسان جسمه للشعائر «فيصير بذلك غريبا عن جسمه كأهم شيء يمتلكه، كما اهتم به فلاسفة يونانيون أمثال سقراط وأفلاطون وغيرهم»[3].

إذا بحثنا عن مقابل ودلالة الاغتراب في اللغات الأجنبية، نجد بأن مقابل هذه الكلمة في اللغة الإنجليزية "Alienation" وتعني «قابلية الأشياء بل والكائنات الإنسانية المملوكة للتنازل عنها أو البيع»[4]، وهذا ما

يعرف بالتشيؤ الذي يساوي بين الإنسان والأشياء ويعامل معاملتها. وقد ذهب بعضهم على غرار "دانيال بيل" إلى أن للاغتراب معنى مزدوجا؛ الأول هو الغربة أما الثاني فهو التشيؤ.

أما مقابله في الفرنسية "Alienation" فتدل على الترك والعطاء وكذا الغربة الروحية، وقد اشتقت الكلمة الفرنسية على غرار الإنجليزية من الفعل اللاتيني "Alienar" الذي يعني نقل الملكية من شيء إلى آخر، وهو بدوره راجع في الأصل إلى اللفظ «Alius الذي يدل على الآخر سواء كاسم أو صفة»[5]، فالقاسم المشترك بين معاني الاغتراب في مختلف اللغات هو الدلالة على انتقال الملكية من شخص إلى آخر.

مفهوم الاغتراب متواجد في كل المجتمعات وفي كل الثقافات وحاضر في جل المجالات مما جعل الوصول إلى تعريف شامل من أصعب المهام وأعوصها، بخاصة أنه متصل بالإنسان اتصال وثيق.

جاءت كلمة الاغتراب في الموسوعة الاجتماعية لتدل على ضياع المرء وغربته عن ذات نفسه أو عن المجتمع الذي ينتمي إليه، أو هو الهيمنة على العمليات الاجتماعية والاقتصادية، ولم تأخذ ظاهرة الاغتراب أبعادها المنهجية إلا مع الدراسات النفسية والفلسفية الحديثة في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين[6]، ويعود الفضل في ذلك لكل من "ماركيوز" و"فروم" الذي يرى «أن القضايا الإنسانية المختلفة كالحب، والحرية، والقلق، والاغتراب... لا يمكن أن تنفصل عن البناء الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي للمجتمع لذلك فإن تحقيق الحرية الإيجابية، وقهر الاغتراب مرهون لديه بتحقيق التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المناسبة التي تسمح للإنسان أن يعبر عنه بشكل تلقائي حر»[7]، وبهذا نستنتج أن الاغتراب ظاهرة ذاتية ونفسية وفكرية لها أسبابها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تسهم في انتشاره، مما يجعل العلاقة بين الذات والآخر علاقة تنافر واستلاب وعزلة وتفرد «فالإنسان في العصر الحديث أصبح منفصلا انفصالا حادا لم يسبق له مثيل، سواء عن الطبيعة، أو المجتمع، أو الدولة، وحتى

عن نفسه وأفعاله، ولم يعد قادرا على إقامة الجسور التي تصل بينه وبين هذا الآخر المختلف المظاهر، والمتعدد الأسماء، وأصبح عاجزا عن تحقيق ذاته على نحو شرعي أصيل»[8].

لقد لحق الاغتراب العديد من الاستعمالات، ظهرت على الذات الضائعة تشعر بالقلق والخوف من فقدان الأمن والفرح حتى صارت في عالم يسوده التوتر والقلق النفسي؛ فجل هذه المظاهر تترجمها لنا لفظة واحدة ألا وهي الاغتراب.

لقد أصبح الاغتراب مرادفا للعزلة والانفصال، الاكتئاب، اللامبالاة، الخوف، واللا أمن، وفقدان الحرية، فيعرفه "هيجل" والذي عُرف بأبو الاغتراب، وهو أول من استخدم في فلسفته مصطلح الاغتراب على نحو منهجي مقصود، وذلك في مجمل مؤلفاته، ابتداءً من كتابه الذي يعرف بـ"ظاهريات الروح" 1708، والذي تحول الاغتراب على يديه من مجرد شكل، أو فكرة، أو كلمة، إلى مصطلح فني ومفهوم دقيق يستخدم عن قصد[9]. وقد استخدمه استخداما مزدوجا؛ أحدهما سلبي بمعنى الانفصال والثاني إيجابي بمعنى التسليم، ويقصد بالمعنى الأول أن الفرد لديه انتماء فوري وتلقائي للاتحاد بما يسميه البنية الاجتماعية، لكن هناك ظروف وصراعات توقف من اندماج الفرد العفوي للبنية الاجتماعية، مما يجعل له وجودا مستقلا، وعلى الرغم من إيجابية هذا الاستقلال لتحقيق الطبيعة الجوهرية للفرد إلا أن الاستغراق في الاستقلال الذاتي عن البنية قد يؤدي إلى وجود تنافر حيالها، وبالتالي الانفصال عنها، حين ينظر إليها على أنها شيء مستقل وغريب عن ذاته، فينشأ بذلك ما يعرف بالاغتراب بمعناه السلبي[10].

انعكست هذه الظاهرة على الأدب، فغدا الاغتراب موضوعا بارزا فيه، «إذ أصبح من المألوف في الوقت الراهن بصورة متزايدة أن نسمع عن تفسير الحياة في عصرنا الحالي من خلال مفهوم الاغتراب»[11]، فيعمل الأديب في نقل رؤيته وأثر التحولات المحيطة به في بنيته النفسية والفكرية، الأمر الذي جعل بعض الباحثين يميلون إلى اعتبار كل رائد في الأدب في الفن والأدب «يحوي بذور اغتراب في بنيانه الداخلي وأيضا في كل عمل أدبي أو فني لابد أن نعثر على جذور الاغتراب... منذ أقدم العصور حتى الآن»[12]. فالإلياذة والأوديسة لهوميروس حوت اغتراب الإنسان ووقوفه عاجزا أمام الطبيعة وقواها، وجسدت لنا

"هملت" لشكسبير اغتراب الإنسان عن كل ما يحيط به، والملك "لير" اغترابه عن العالم الخارجي، وفي الرواية نجد الاغتراب عند بلزاك في "الكوميدية البشرية" وروايات ديكنز "أوليفر تزيست وعناقيد العنب" و"البؤساء" لفيكتور هيجو.

أما عند العرب فنجد الصعاليك نموذجا بارزا للاغتراب من خلال رفضهم الانصياع والتقيد بقوانين القبيلة وفضلوا الانفصال والخروج عن القبيلة «وظهر الاغتراب عن المجتمع جليا عند فئة من شعراء الجاهلية هي فئة الشعراء الصعاليك الذين يمكن أن نميز فيهم مجموعتين: مجموعة فرض عليها الاغتراب، وتتألف من الشعراء الخلعاء الذين نبذتهم قبائلهم وطردتهم ممن حماها، وقطعت كل صلة بينهم وبينها بسبب تصرفاتهم التي تخالف منطق القبيلة وقوانينها.

مما لاشك فيه أن اغتراب هذه الطائفة كان نتيجة دوافع اجتماعية وسياسية واقتصادية وجغرافية، ولكن مهما كانت الأسباب المؤدية إلى اغتراب الصعاليك وسواء كان اغترابهم مفروضا أم اختياريا فقد جمع بينهم على اختلاف قبائلهم الفقر والجوع والتشرد»[13].

بالإضافة إلى الفئة التي هجرت المجتمع القبلي هناك فئة أخرى اغتربت عن العالم الإنساني كله فهجرت مجتمع الإنسان إلى الصحراء البعيدة حيث الوحوش والحيوانات المختلفة فصاحبت الوحوش وأنست بها، يقول "تأبط شرا" واصفا نفسه:

يبيت بمغنى الوحوش حتى ألفنه ويصبح لا يحمى لها مرتعا

رأينا الفتى لا صيد وحش يهمه فلو صافحت إنسا لصافحنه معا[14]

وعليه ندرك أن الاغتراب ظاهرة خطيرة وبارزة في الأدب؛ حيث يجد الأديب نفسه في واقع مر وقاس لا روح فيه، فكلما ازدادت التحولات الحضارية تعقيدا وازدادت التوجهات السياسية تعددا وتضاربا،

تنعكس هذه المظاهر على الإنسان فيصبح أكثر ميلا إلى العزلة والتمزق الداخلي، ويعيش في ضياع وقلق وتوتر ومن هنا فإن موضوع الاغتراب يعد واحدا من الموضوعات البارزة في كثير من الأعمال الأدبية الشعرية منها والنثرية.

لم يكن الأدب الجزائري بمنأى عن هذه الظاهرة، وبخاصة في العصر الحديث نظرا لما شهدته الجزائر من ظروف سياسية واجتماعية لابد أن تنعكس على الإنتاج الأدبي عموما والرواية بشكل خاص، حيث يجد الأديب نفسه يعيش واقعا مرا ومتأزم لا روح فيه بسبب التحولات الحضارية المعقدة والأنظمة السياسية المتضاربة، يصبح يحيا حياة الضياع والإحباط والقلق والتوتر، والانكسار.

مظاهر برزت في العديد من الروايات الجزائرية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر كروايات فضيلة الفاروق، وعزالدين جلاوجي، وعبد الله عيسى لحيلح، وعائشة بنور، وغيرهم؛ ولا يتسع المجال هنا للحديث عن تجليات هذه الظاهرة في الرواية الجزائرية المعاصرة، وعليه سنسلط الضوء على الظاهرة من خلال عمل من أعمال الروائية الجزائرية أحلام مستغانمي "ذاكرة الجسد"، والجزائر شأنها شأن المنطقة العربية، شهدت ظروفا سياسية واجتماعية قاهرة، وقد كان لهذا المناخ تأثير كبير في تشكيل الشخصية الجزائرية اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وفكريا، ولد من رحمها الكثير من الأعمال الأدبية، والروائية بشكل خاص، وقد كانت الرواية وعاء لرصد الكثير من الظواهر متخذة البنية السردية من زمان ومكان وشخصيات، سبيلا لرصد هذه الأفكار والظواهر وتصديرها.

تهدف هذه الدراسة إلى معاينة ظاهرة الاغتراب وأشكالها ودوافعها للكشف عن سمات الشخصية الاغترابية في رواية "ذاكرة الجسد" وما هي التقنيات التي وظفتها الكاتبة للتعبير عن هذه الظاهرة أدبيا؟

تُعد أحلام مستغانمي من أهم الروائيين الذين كتبوا في الحقل الروائي الجزائري وهي التي قال عنها الرئيس الجزائري السابق أحمد بلة "إن أحلام مستغانمي شمس جزائرية أضاءت الأدب العربي"، وقال عنها الشاعر نزار قباني في وصفه لرواية "ذاكرة الجسد": «... الرواية قصيدة مكتوبة على كل البحور... بحر الحب،

وبحر الجنس، وبحر الإيديولوجية، وبحر الثورة الجزائرية بمناضليها ومرتزقيها، وأبطالها وقاتليها، وملائكتها وشياطينها، وأنبيائها وسارقيها... هذه الرواية لا تختصر ذاكرة الجسد فحسب، ولكنها تختصر ذاكرة الوجع الجزائري، والحزن الجزائري، والجاهلية الجزائرية التي آن لها أن تنتهي...». وقد اخترنا هذه الرواية نموذجا للبحث في مأساة الواقع الجزائري والتحولات التي مسته، والتي وفرت للمتخيل السردي مادة حكائية غزيرة ولكن ما لفت انتباهنا بالإضافة للأحداث التاريخية والبنية السردية، هي ظاهرة الاغتراب وتجلياتها في المتن الروائي وقد برزت بأشكال عديدة، منها الغربة الذاتية، والفكرية، ولانفسية، والمكانية، على أن هذا التصنيف يتم وفق الدوافع التي تؤدي إليه، مع الالتفات إلى أن الأنواع كلها ترتبط معا وتتداخل بما يصعب الفصل بينهما.

3– مظاهر الاغتراب في رواية ذاكرة الجسد:

قد يتجاوز الإنسان فكرة اعتباره مجرد كائن حي خلق ليستقر فيزيولوجيا ونفسيا، إلى البحث والتنقيب وتشكيل رؤية خاصة بالكون الذي يعيش فيه، فيحاول أن يرتقي بفكره ويلجأ إلى تجديد؛ إلا أن هذا التجديد والارتقاء قد يعود بالضرر عليه، لا لشيء سوى أن ثقافة المجتمع ترتكز في أصلها على تناقضات قيمية لا تخدم العامة بل تسعى إلى تغليب المصلحة الفردية وبهذا «لا يصبح المثقف أو المنتج في حقول الفكر والثقافة والسياسة عقلا فعالا ذا هيبة تبجيلية... وإنما مجرد مبدع يمارس حيويته الفكرية»[15] في إطار ضيق ومحدود جدا اقتضته حالة التقويض التي تعانيها ثقافة بلاده وعلى صعيد الإلتزام كان على المثقف أن ينقاد للعادات والتقاليد الرائجة من باب التعايش، والحفاظ على الذاكرة الثقافية العامة، وعدم تكدير صفو سيرورتها، إلا أن أبطالنا قد عجزوا عن الذوبان في استراتيجيات لا تنفك تبتعد عن طموحاتهم وصورتهم التي رسموها للوطن ووعيهم للمنظور الاجتماعي.

حيث وجد "خالد بن طوبال" بطل رواية "ذاكرة الجسد" نفسه في مجتمع يحتاج إلأى إصلاح في شتى الميادين «هناك أخطاء كبرى ترتكب على حسن نية، فلقد بدأت التغييرات بالمصانع والقرى الفلاحية

والمباني والمنشآت الفخمة وترك الإنسان إلى الأخير»[16]. فنجده هنا يصل إلى نتيجة وهو الخطأ الفادح في بناء الوطن بعد الإستقلال، وهو عدم استهداف الإنسالن بالبناء واهماله، فيسعى إلى اعتماد سياسة التغيير ومحاولة التقويم السياسي الذي ينشده بدافع الاغتراب، فرفض السياسة التي انتهجتها البلاد ونجده يتأسف على ما آل إليه المجتمع الجزائري، وهذا ما نسميه الاغتراب الثقافي الذي هو لون من ألوان الاغتراب الاجتماعي «حيث أن الانفصال حدث بين المثقف أو المفكر أو الفنان من جهة، والمجتمع الذي ينتمي إليه من جهة أخرى»[17]، والبطل بصفته مثقفا انتبذ واعتزل وأعفى ذاته من ممارسة أي نشاط ثقافي أو سياسي متعلق بالدولة، فاغترب عن جل الأنظمة واستقل بفكره، مما زاد من فكرة الاغتراب لديه والتي جعلت منه فردًا مثقفا يحن إلى ماضي الأمجاد، ويستنكر الحاضر العنيف، ويستشرف المستقبل، ولوهلة وجد "خالد بن طوبال" نفسه يسبح في زيف الزمن، ويتسلل بين طيات الأزمة والسلطة التي فرضت عليه لسنوات عدة الغربة والاغتراب، صار ينفرد فيها بعيدا عن الناس حتى يسرد لذاته المقهورة أو لوحاته مرارة العيش في مجتمع قمع المثقفين «الذين أصبحوا أكثر عرضة لتصدع الذات والغربة وانعدام مشاعر القدرة وفقدان الاحساس بالأمن والسكينة»[18]، وهذا ما فقدته الأنا حين لم تجد لفنها كرسام وقبل ذلك كمجاهد فقد ذراعه إبان الثورة التحريرية موقعا في المجتمع. رسم لوحاته الإحدى عشر بعد طول تأمل وكفرد يعيش بينهم «ولكونه مثقفا فاعلا كان يملك رؤية للعالم، ووجد نفسه وسط مجتمع لا يصنع مصائره، أوجد لنفسه حيزا في شريط زمنه الغارق في الصمت الكاذب»[19]، ويقصد بالفاعلية هنا القدرة على صياغة وبلورة نقد قائم على مقاييس صارمة أعلنتها شخصيته الثائرة على الخلخلة العميقة في البلاد.

وما الهروب من الوطن الذي تحكمه قرارات سياسية غير واعية بالواقع الذي تعيشه الفئة المثقفة أو المشتبه بتاريخها الثوري، إنما يعكس القيم والمبادئ التي تمسكت بها الأنا لأنها ترفض دوما الفوضى السياسية والظلم الخانق من قبل تلك الشخصيات التي أفسدت المجتمع بمعاملاتها القائمة على النهب والخداع بحكم مناصبها أمثال "سي شريف" و"سي مصطفى"، إن هجرة الأنا إلى فرنسا واغترابها بحثا عن الأمن والاستقرار، لا يعني النسيان، بل هو الحنين. فالظلم السياسي هو المسبب الأول لتصدع الأنا

واحساسها القوي بالغربة داخل الوطن، وضعفها على مقاومة الظلم بأنواعه، فتفقد الأنا هدوءها وسكينتها، خاصة هي الحاملة لقيم ماضيها وتاريخها، والمثقف الرافض لكل تحجر سياسي غير قادر على استيعاب الجماهير وقبول رأيهم وتحسين أوضاعهم. هذا الفساد الذي لم يكن وليد الحاضر، بل هو تبعات تاريخ من باعوا البلاد سابقا وتركوها لمن ناضل من أجل استرجاعها ولا يزال هذا الوطن ينتظر من يحرره حتى بعد استقلاله.

عكست الأنا الرؤية الفجائعية التي صورتها الروائية في رواياتها، فهي تظهر وعي الأنا لذلك التحايل السياسي الذي يمارسه أرباب المال والسياسة ليزيدوا من فساد الوطن، واختناق الأنا فيه، هذا الذي دفعها للهروب منه.

إن الحياة التي تقوم على اللامعيارية تفقد الأنا القيم التي لطالما تثبت عليها زمن الثورة مما تجره للانعزال.

في المرحلة التي يعيشها "خالد بن طوبال" وما ميزها من عنف واضطراب وحيرة، غدت الفجيعة والقلق هي مرتكز حياته، فالاغتراب لديها جاء كنتيجة لرصد واقعه الممزق والمتأزم وللمشاكل التي يعيشها كنتاج للأوضاع التي يعيشها الوطن، فهو يشعر أن ما يراه في محيطه غير منظم وغير معقول، فالأنا المغتربة تشعر بالكآبة والشقاء والمعاناة والعجز والإحباط والتمزق، فالبطل يشعر باغتراب ذاتي بسبب غياب العدل والمساواة وانتشار الظلم في المجتمع، فهذا النظام عزز الشعور بالاستلاب والاغتراب، لقد أصبحت الأنا غريبة عن المجتمع بل غريبة حتى عن نفسها، فهي لم تستطع العيش في هذا الواقع الموبوء فتلجأ للهروب إلى الماضي الجميل حيث كان للوطن قيمته وللمجاهد هيبته فجاء هروبها من الواقع عن طريق استدعاء الماضي. رافضة للامعنى الحياة وانحطاط الزمن واندثار القيم، وما زاد من معاناتها وعيها العميق بالعالم الخارجي المزيف «فوعي البطل وادراكه لذاته، أو بعبارة أخرى تيمته الأخيرة حول العالم وحول نفسه فليس المهم ما تمثله الشخصية للعالم، ولكن ما يمثله العالم بالنسبة لها أو ما تمثله هي بالنسبة لنفسها»[20].

هذا الرفض الذي يصل إلى حد السخرية بعد أن بلغت أزمته أوجّها فاستفاق بعد الصاعقة، فينقلب ويتغير خطابه فيتحول إلى لهجة مرموقة وساخرة حتى من محدثيه «ماذا ستهدي لي؟

قلت:

إنها مفاجأة... لنفرض أنني سأهديك غزالة.

قلت مدهوشة:

إنه عنوان كتاب

قلت أدري... لأنني سأهديك كتابا... وعندما نحب كاتبة نهديها كتابا، سأكتب من أجلك رواية.

خالد قل شيئا... لما لا تجيب. قلت لك بشيء من السخرية المرة.

لأن رصيف الأزهار لا يجيب.

قلت: ماذا تعني؟

أجبتك بصوت غائب لا أعني شيئا بالتحديد»[21].

فخالد انتقل إلى مرحلة وعي بالواقع ساخرا من أهله، الذي على ما يبدو استفاد من كبواته، فقطيعة خالد لم تكن تهدف لفكاك من أجل الفكاك وإنما هدفه تحقيق موقع جديد يصنعه كي يكون للفكاك والقطيعة معنى، فالأنا باغترابها عن الواقع والعودة إلى الماضي تتحرر من قيود الواقع المأزوم، فهي متغيرة الأمزجة والطباع تكرس في تناقضها مفاهيم التشتت والضياع وبالتالي الهروب إلى اللامكان، إلى ذلك الفضاء الذي تتيحه الذاكرة الجديدة التي نشدتها الأنا على امتداد الرواية، فهي تبحث عن ذات تحمل جوارح وحواس تعوض ما افتقدته من جوارح وأعضاء في عالمها الواقعي. فتلجأ للبحث عن اكتمالها المادي والروحي وعن درء العطب الذي لاحقها في عالمها. فالأنا تقدم لنا عالمها الداخلي برؤية مأساوية محددا موقعه ووضعه المأزوم فيه، وهي الحال التي يجسدها وصفه لملامحه الداخلية وحالته النفسية حين تشبهه حياة بزوربا في قولها «فيك شيء ضمن زوربا شيء قامته... من سمرته... وشعره الفوضوي المنسق، ربما كنت فقط أكثر وسامة منه.

أجبتك:

يمكن أن تضيفي كذلك أنني في سنه، وفي جنونه، وتطرفه وأن في أعماقي شيئا من وحدته، ومن حزنه، ومن انتصاراته التي تتحول دائما إلى هزائم»[22]، ومن الانتصارات التي تتحول إلى هزائم أن يتحول فنانا مبدعا كهذا إلى مدينة خربة «فالذي يجلس أمام مساحة بيضاء للخلق لابد أن يكون إلها أو عليه أن يغير مهنته.

تراني إله؟ أنا الذي حولني حبك إلى مدينة إغريقية لم يبقى منها قائما غير الأعمدة الشاهقة المتآكلة الأطراف»[23]، لتمسخه قسنطينة في أبشع صورة، وترميه معطوبا بين جدرانها «أنا ذو العاهة الآخر، الذي أحبها، أنا أحدب نوتردام الآخر، أحمق قسنطينة الآخر»[24].

وفي تحديد أعمق لهذا الاغتراب والشعور بالدونية والوحدة يجعلنا خالد نتساءل عن سبب معاقبته في هذا العالم رغم أنه لم يكن من المذنبين لقد قرر فقط أن وحديا ولا منتاميا لهذا العالم «لم أكن مجرما... ولا مقامرا... ولا كافرا... ولا كاذبا... ولا سكّيرا... ولا خائنا... ولا زانيا... لم تكن لي زوجة، ولا سري شرعي استبدلته بآخر، خمسون سنة من الوحدة نصفها تماما يمكن أن نسميه السنوات المعطوبة، تلك التي قضيتها بذراع واحدة، مشوه الجسد والأحلام»[25].

رغم ذلك فقد قرر الاستمرار في مواجهة هذا العالم الفاسد الذي يحكمه سماسرة الأزمة بمنطقهم الذي تمرد عليه رغم كل ما يعانيه من أزمات وانكسارات فيخاطبنا في رمق أخير عما أراده من مسيرته المتمردة تلك «أريد أن أبقى هكذا أمامهم، مغروسا كشوكة في ضميرهم، أريد أن يخجلوا عندما يلتقوا بي، أن يطأطؤوا رؤوسهم، ويسألوني عن أخباري، وهم يعرفون أنني أعرف كل شيء عن أخبارهم وأنني شاهد على حقارتهم»[26].

إن الشعور بالغربة داخل الوطن وخارجه لا يتوقف عند مجرد الحنين إليه والحلم في العودة إليه أو العمل لأجله، وإنما يرافق ذلك صراع وردود فعل داخل النفس الإنسانية قد تنتهي بها إلى مظاهر أخرى من الاغتراب الروحي والنفسي والثقافي. حيث يمثل الاغتراب حسا داخليا يعمل على تشكيل علاقة الذات والخارج/ الواقع بجميع مكوناته، البشرية والمادية، فلم يكن غريبا أن تنعكس هذه الحركة الشعورية على تصرفات الذات.

4- خاتمة:

تعتبر رواية "ذاكرة الجسد" لـ"أحلام مستغانمي" رواية شخصية رئيسية بدا عليها الاغتراب واضحا وجليا، حيث ظهرت تجلياته بصور وأشكال مختلفة، منها الاغتراب النفسي الذي أدى إلى تقوقعها وانعزالها عن المجتمع، وفقدان الثقة تجاهه، والاغتراب المكاني حيث انتقلت الشخصية من أرض الوطن إلى الغربة أين وجدت التقدير والاحترام، كما نجد الاغتراب الثقافي والسياسي من خلال رفضها للوضع السائد ومحاولة تغييره، وهنا يجب الإشارة إلى أن هناك تداخل بين أشكال الاغتراب ويصعب الفصل بينها.

5- الهوامش:

[1] يونسي كريمة: الاغتراب النفسي وعلاقته بالتكيف الأكاديمي لدى طلاب الجامعة، 2012، ص22.

[2] محمد عباس يوسف: الاغتراب والابداع الفني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 2004، ص07.

[3] فيصل عباس: الاغتراب، الإنسان وشقاء الوعي، دار المنهل اللبناني، لبنان، ط1، 2008، ص21.

[4] سهير عبد السلام: مفهوم الاغرتاب عند هاربرت ماركيوزم، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 2003، ص21.

[5] يحي العبد الله: الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2005، ص21.

[6] حسن عليان: الاغتراب والمقاومة في الرواية العربية في فلسطين والأردن، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، دط، 2005، ص11.

[7] حماد حسن محمد حسن: الاغتراب عند إيريك فروم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، دط، 1995، ص142.

[8] محمود رجب: الاغتراب سيرة ومصطلح، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1993، ص06.

[9] المرجع نفسه، ص13.

[10] ريتشارد شاخت: الاغتراب، تر: يوسف حسن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دط، 1980، ص105.

[11] المرجع نفسه، ص56.

[12] إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي، رواية المسخ نموذجا، عام الفكر، يوليو، 1984، مج15، ع2، ص85.

[13] سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2000، ص ص، 84، 85.

[14] المرجع نفسه، ص89.

[15] نور الدين مسعودان: مالك بن نبي بقلم معاصريه، دار النون للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت، ص21.

[16] أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط16، 2001، ص148.

[17] أميرة الزهراني: الذات في مواجهة الآخر، تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية، المركز الثقافي العربي، الدرا البيضاء، المغرب، ط1، 2007، ص28.

[18] عز الدين جلاوجي: سلطة النص، دراسات، دار المعرفة، باب الواد، الجزائر، 2009، ص337.

[19] الشريف بوحبيلة: الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط1، 2010، ص142.

[20] حسن البحراوي: بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمان، المكان، المركز الثقافي العربي، الدرا البيضاء، المغرب، ط2، 2009، ص231.

[21] أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص ص، 447، 448.

[22] الرواية، ص139.

[23] الرواية، ص207.

[24] الرواية، ص343.

[25] الرواية، ص356.

[26] الرواية، ص441.